مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

معالم طب الجراحة العربي في الأندلس
(كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف) أنموذجا(*)

أ.د/ حنان عبدالله الغامدي
أستاذ الأدب والنقد والبلاغة في قسم اللغة العربية
كلية اللغات والترجمة جامعة جدة - السعودية

*) تاريخ تسليم البحث 3/12/2024 تاريخ قبوله للنشر 23/1/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

معالم طب الجراحة العربي في الأندلس
(كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف) أنموذجا(١)

أ.د/ حنان عبدالله الغامدي
أستاذ الأدب والنقد والبلاغة في قسم اللغة العربية
كلية اللغات والترجمة في جامعة جدة - السعودية

الملخص

مَثَّلَ التراث الطبي العربي وجهًا من وجوه الحضارة الإسلامية المشرقة في الأندلس، وأسهم في جعلها منارة علمية يتباهى العالم بأسره بها، مستلهمًا حياة أهلها في المأكل والملبس كجزء من هويتهم الثقافية، أما على أرض الواقع فقد عجَّت الأندلس بالعلماء والأطباء والفلكيين الذين أسسوا مدارس متنوعة تفاوتت بين العلوم اللغوية والعلوم النفعية، وتبوأ الطب عندهم منزلة رفيعة في تلك الحقبة؛ مما أظهر التخلف الذي مُني به العالم من حولهم في القرون الوسطى، وقد حقق الطب في الأندلس في عهد الدولة الإسلامية إنجازات هائلة في مختلف ميادينه، فبرز عدد من الأعلام في هذا المجال، مثل: الكرماني، والإيادي، وابن أبي الحكم، وابن البيطار، والكتاني، وابن جُلجُل، وابن رشد، وابن طفيل، وابن وافد، والزهراوي، والغافقي، وابن السراج، وغدوا منارات للطب في عصرهم؛ لذا تتناول هذه الدراسة نموذجًا مشرفًا للطب الأندلسي من حيث خصائصه وأساليبه، ممثلًا في كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي (ت: ١٠١٣م/٤٠٠هـ) الذي يعدّ أول كتاب في الطب الجراحي في العالم؛ لذا قسمتُ الدراسة إلى تمهيد وثلاثة مباحث، عرفت في التمهيد بالزهراوي وكتابه، وتناولت في الأول وصفًا استقصائيًا للمعالجات الطبية الواردة في الكتاب، وعرضتُ في الثاني أبرز إنجازات الزهراوي في مجال التأليف الطبي، ثم تناولت في الثالث: دراسة لغوية لأسلوب الزهراوي في الكتاب كونه نموذجًا للخطاب الطبي في عصره، مستعينة بمنهج وصفي يستقرئ النماذج، ويحلل مساراتها، وختمت دراستي بخاتمة أكدت فيها المكانة العظيمة للطب الأندلسي، وفضله عالميًا في تعبيد الطريق للأطباء اللاحقين في مجال الطب الإكلينيكي الحديث وأخلاقياته.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، طب الجراحة، الزهراوي، الخطاب الطبي، الكي.

(١) شكر خاص لعمادة البحث العلمي في جامعة جدة لدعمها وتمويلها للبحث رقم (UJ-23-SHR-69)

This work was funded by the University of Jeddah, Jeddah, Saudi Arabia, under grant No. (UJ-23-SHR-69). Therefore, the authors thank the University of Jeddah for its technical and financial suppo

Landmarks in Arab Surgery in Andalusia: Al-Zahrawi's 'At-Tasrif' as a Model

Dr. Hanan Abdullah Al-Ghamdi
Professor of Literature, Criticism and Rhetoric in the Arabic Language Department College of Languages and Translation at the University of Jeddah Saudi Arabia

Abstract

The Arab medical heritage was a shining facet of the Islamic civilization in Andalusia, contributing to making it a beacon of scientific knowledge that the world admired. Drawing inspiration from the local lifestyle, including food and clothing, as part of their cultural identity, Andalusia was teeming with scholars, physicians, and astronomers who established diverse schools spanning linguistic and applied sciences. Medicine held a distinguished position among them during that era, highlighting the backwardness of the contemporary world, Under Islamic rule, Andalusian medicine made remarkable achievements in various fields. Numerous luminaries emerged in this field, such as al-Karmani, al-Ayyadi, Ibn Abi al-Haqm, Ibn al-Baytar, al-Kattani, Ibn Juljul, Ibn Rushd, Ibn Tufail, Ibn Wafid, al-Zahrawi, al-Ghafiqi, and Ibn al-Sarraj, who became beacons of medicine in their time.This study explores a remarkable example of Andalusian medicine, its characteristics, and methodologies, represented by the book "At-Tasrif" (The Method) by Abu al-Qasim Khalaf ibn Abbas al-Zahrawi (d. 1013 CE), considered the first comprehensive book on surgery in the world. The study is divided into an introduction and three chapters. The introduction provides an overview of al-Zahrawi and his book. The first chapter offers a detailed description of the medical treatments presented in the book. The second chapter highlights al-Zahrawi's most significant contributions in the field of medical authorship. Finally, the third chapter conducts a linguistic study of al-Zahrawi's style in the book as a model of medical discourse in his era, employing a descriptive approach to analyze its patterns. The conclusion emphasizes the great significance of Andalusian medicine and its global contribution to paving the way for subsequent physicians in modern clinical medicine and medical ethics.

Keywords: Andalusia, surgery, al-Zahrawi, medical discourse, cauterization.

مقدمة الدراسة:

مَثَّلَتْ الحضارة الإسلامية في الأندلس امتدادًا طبيعيًّا للحضارة العربية في المشرق الإسلامي، ويعود الفضل في ذلك إلى العلماء الذين عقدوا العزم على المضي قدمًا، ولم يقتصروا على النقل والرواية، بل استمروا في العطاء والإبداع؛ فأصبحت الأندلس بعد انتقال الحضارة الإسلامية منارة مضيئة في التاريخ العلمي الإسلامي.

لقد كان للعلماء المسلمين في بلاد الأندلس إسهامات متميزة في مختلف الميادين العلمية والمعرفية، ومنها علم الطب، والجراحة، والأغذية العلاجية، فتميزت إسهاماتهم بالشمولية والإبداع وفق أسس منهجية تجريبية أصيلة، انعكست آثارها على جوانب الممارسة الطبية كافة، وهو ما شهدت به مصنفات الأطباء الذين ذاع صيتهم في الأندلس وما جاورها.

ويعد الزهراوي أشهر أطباء المسلمين في الأندلس، اسمه: خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي، ويُلقب بالأنصاري نسبة إلى أجداده الذين هاجروا من المدينة المنورة، ويُكنى بأبي الجراحة؛ لأنه كان أول من صنف في هذا المجال، وأعظم جراحي العرب، وأستاذ الجراحين في أوروبا قاطبة.

توزع الدارسون مقالاته المجموعة في كتاب "التصريف"؛ فأنشؤوا منها كتبًا مستقلة، وبرز المقال الثلاثون "أعمال اليد الطبية والجراحة" على يد كثير من الباحثين الذين ترجموه إلى لغات متعددة، بدءًا باللاتينية التي تُرْجِمَ إليها عام (١٤٩٥م)، ثم تُرْجِمَ في بازل عام (١٥٤١م)، ومن النسخ الأشهر نسخة أكسفورد التي صدرت عام (١٧٧٨م)، كما تُرْجِمَ إلى الفرنسية عام (١٨٦١م)، ثم توالت الترجمات حتى تُرْجِمَ على يد المستشرق م. س، سينك عام (١٩٧٣م)[(١)].

ولما كان نبوغ الزهراوي في علم الجراحة يمثل علامة فارقة في تاريخ الجراحة الطبية، وقع الاختيار على كتابه الشهير (التصريف) نموذجًا مشرفًا للطب الأندلسي بما يتضمنه من خصائص وأساليب ومباحث، وهو ما أسعى في هذه الدراسة إلى الوقوف عليه؛ إبرازًا لأثره العظيم في إرساء دعائم هذا العلم في العصور الوسطى المظلمة.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية هذه الدراسة في توضيح معالم طب الجراحة الأندلسي من خلال عرض الدور البارز لأبي القاسم الزهراوي في تحويل مهنة الطب الجراحي إلى مهنة رفيعة، لها أصولها، وتقاليدها، وممارساتها التجريبية، بعد أن كانت مهنة مُحتقرة في الثقافة اللاتينية التي كانت تنظر إلى "عمل اليد" باحتقار.

أهداف الدراسة:

١- التعرف على النقلة الحضارية التي أحدثها الزهراوي في مجال الجراحة علمًا وخلقًا.

٢- التعريف بمدونة شخصية أندلسية طبية أسهمت مع أقرانها في تشكيل ملامح حضارة إسلامية زاخرة.

---

(١) السعيد، عبد الله عبد الرازق مسعود. (٢٠٠١م). من رواد الطب عند المسلمين والعرب: الزهراوي طبيب وجراح الفم والأسنان وموسوعته الطبية "التصريف لمن عجز عن التأليف". ط١، وزارة الثقافة: عمان، الأردن، ص١٢، وزناتي، أنور محمود، الإنجازات العلمية لطب الأسنان في الأندلس وأثره على التطور العلمي الأوروبي منذ عصر الخلافة وحتى نهاية دولة الموحدين: (٣١٦-٦٤٠م/ ٩٢٨-١٢٤٤م)، *مجلة الدراسات العربية*، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ١٨٥٠- ١٨٥٤، وحمامي، صبحي محمود. (٢٠٠٤). التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ط١، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، إدارة الثقافة العلمية: الكويت، ٣٨-٤٥.

٣- تقديم نموذج تطبيقي لإمكانية تعريب الطب في البلاد العربية والإسلامية، والإفادة من اللغة التواصلية للطب العربي.

٤- تأطير خصائص التأليف الطبي العربي عند الزهراوي من خلال مصنفه.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تكمن مشكلة الدراسة في فقدان النموذج العربي المعاصر في التأليف الطبي الجراحي باللغة العربية، والاعتماد على اللغات الأخرى كوسيلة علمية للتأليف والنشر الطبي في البلاد العربية؛ لذا طرحت الدراسة مجموعة من التساؤلات، منها:

١- ما حدود المنجزات الأندلسية التي أَثْرَتْ الحضارة الإنسانية؟

٢- كيف عَكَسَ النموذج الطبي في الأندلس صورة الحضارة العربية والإسلامية؟

٣- ما أبرز منجزات الجراح العربي المسلم أبي القاسم الزهراوي؟

٤- ما السمات اللغوية التي تميز كتابة المؤلف الطبي العربي عند الأطباء المسلمين في الأندلس؟

الدراسات السابقة:

١-دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي. عبد الرحمن الحجي. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي (٢٠٠٧): فقد تناولت واقع القيم العلمية في الحضارة الإسلامية، مبرزًا صورًا من الشغف العلمي، والأصالة الأخلاقية في الحياة الإسلامية الأندلسية، واستحضر العناية بالمكتبات التي تبناها النظام السياسي؛ فانعكست في صورة نهضة حضارية وعلمية رفيعة، وأكد الباحث تبني العلماء الأندلسيين المنطق العلمي الذي يستند إلى إيمان عميق برسالة الإسلام ورغبة حقيقية في خدمة البشرية، وخلصت دراسته إلى التأكيد على أن انتشار العلم والمعرفة في بلاد الأندلس كان مرتبطًا بالتربية الأخلاقية والدينية، والعمل التطوعي للعلماء، كما أشار إلى أن ثراء المكتبة الأندلسية يعود إلى ثلاثة عوامل رئيسة؛ الأول: كثرة المؤلفين في مختلف علوم المعرفة، والثاني: كثرة الإنتاج في الفنون والعلوم، والثالث: زيادة عدد أجزاء الكتب مع التوسع في التأليف متعدد الأجزاء.

٢-الطب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة. (٩٢هـ/٧١١م -٨٩٧هـ/١٤٩٢م). سمية قادري. جامعة (٨) ماي (١٩٤٥) قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم تاريخ الآثار، تاريخ عام، (٢٠١٤م): فقد تتبعت تطور الطب في الأندلس منذ الفتح الإسلامي في نهاية القرن الأول حتى القرن التاسع، وقسمت الدراسة ثلاثة فصول؛ تناول الأول: الطب عبر عصور التاريخ الإسلامي بدءًا من صدر الإسلام، مرورًا بالخلفاء الراشدين، ثم عصر الأمويين، فالعصر العباسي، ثم عرضت في الفصل الثاني نشأة الطب في الأندلس وتطوره من الفتح إلى نهاية الإمارة الإسلامية هناك، وعرجت على مظاهر التواصل الطبي بين الأندلس والمشرق العربي من جهة، وانتقال العلوم الطبية من المسلمين إلى أوروبا من جهة أخرى، وفي الفصل الثالث: عرضت الباحثة دور الصحة في الأندلس، ومظاهر التعليم الطبي، معرجة على أبرز الأطباء الأندلسيين، وذلك وفق منهج تاريخي، وخلصت الدراسة إلى التأكيد على اهتمام خلفاء بني أمية والمرابطين والموحدين من بعدهم بالطب ورعاية أهله، وإقامة المؤسسات الصحية، كما أكدت أهمية الترجمة في النهضة العلمية الأندلسية.

٣-مدخل منهجي لتاريخ الطب في الأندلس. جعفر يايوش. مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، ٢(٣)، (٢٠٢٠م): وهدفت الدراسة إلى وضع تصنيف علمي لدراسة تاريخ الطب في الأندلس؛ لذلك قسم الباحث الدراسة ثلاثة مباحث؛ تناول في الأول الطب تاريخًا واصطلاحًا، وفي الثاني درس الحركة الطبية في الأندلس من حيث نشأتها وتطورها، وفي الثالث تناول الطب الأندلسي من حيث الموضوع والمنهج، وذلك وفق منهج وصفي، وتوصلت الدراسة إلى أن الأطباء المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة للنظريات اليونانية في الطب، ولم يقتصر دورهم على كونهم أطباء قياس فقط، بل أسسوا مدرسة طبية مستقلة، وأن المحدد السياسي كان من المحددات غير المباشرة التي أسهمت في بناء المضمون المعرفي للحركة العلمية في الأندلس، وربط الباحث في دراسته بين تشكيل المضمون المعرفي في الغرب الإسلامي والظاهرية بعدّها أداة نفعية؛ لتحقيق الوحدة الاجتماعية المفقودة على مستوى السلطة، وقد طبق رؤيته على الطبيب أبي مروان عبد الملك بن زهر، واستنتج أن ابن زهر كان موفقًا في اجتهاداته، ومجددًا ملتزمًا بالشريعة الإسلامية في معالجاته التي خالف فيها جالينوس.

٤-تطور العلوم الطبية في عهد الخلافة الأموية في الأندلس وأثرها في تقدم الحضارة الإنسانية. (٣٠٠-٤٠٠هـ/٩١٢-١٠٠٩م). بلعربي خالد. المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، ٧(١)، (٢٠٢١م): حيث هدفت هذه الدراسة إلى تتبع صور تطور العلوم الطبية في عهد الخلافة الأموية في الأندلس؛ لذا قسم الباحث الدراسة أربعة مباحث؛ تناول في الأول: ملامح من ازدهار العلوم الطبية في تلك الفترة، وعرض في الثاني أبرز الأطباء المؤثرين في تلك النهضة، وفي الثالث عرض الاختصاصات الطبية والعلاجات العلمية كالكحالين، والجراحين، والطبائعيين، والمجبرين، أما الرابع فقد ناقش فيه تأثير إسهام مسلمي الأندلس في ازدهار العلوم الطبية، وخلصت الدراسة إلى أن الازدهار الطبي في عهد الخلافة الأموية في الأندلس، وما أبدعه علماء الطب من ابتكارات كان لها تأثير مباشر في التطور العلمي والحضاري في أوروبا والغرب، والفضل في ذلك لجملة الابتكارات التي أضافها الأندلسيون في الكشف عن الأمراض والعلاجات المبتكرة.

ومن خلال استعراض بعض الدراسات السابقة أظهرت حيوية البحث الطبي في الأندلس، وتنوع مداخله؛ لذلك تنتهج هذه الدراسة مسارًا متممًا لها؛ حيث يبحث في مؤلف علم من أعلام الطب الأندلسي، وهو أبو القاسم محمد الزهراوي، فيحدد مساره وابتكاراته، ويحلل أسلوبه الكتابي؛ لتقديم نموذج للكتابة العلمية الطبية باللغة العربية خلال فترة ازدهارها.

منهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي وفق آلياته وتقنياته التحليلية والتفسيرية التي تسهم في الكشف عن معالم طب الجراحة الأندلسي، وخصائص الخطاب العلمي الذي انتهجه الزهراوي في كتابة مؤلفه الكبير "التصريف لمن عجز عن التأليف"؛ لذا قسمتُ الدراسة ثلاثة مباحث بعد التمهيد:

وفي التمهيد تم تناول مسيرة الطب في بلاد الأندلس، ثم تخيرت كتاب الزهراوي نموذجًا لاستقراء معالم طب الجراحة في تلك الديار، ثم عالجت الكتاب من ثلاث زوايا:

الأولى: وصف المعالجات الطبية كما وردت في كتاب التصريف.

ثانية: إنجازات الزهراوي في مجال الجراحات، والمعالجات الطبية.

ثالثة: دراسة أسلوبية لأصول التأليف الطبي عند الزهراوي في مجال الجراحة.

توطئة:

امتازت الحضـــارة الإســـلامية في الأندلس بالعناية بالآداب، والعلوم، والفنون، وإنشـــاء المكتبات التي رعاها الخلفاء بأنفسهم حتى أضحت بلدانهم منارات يُهتدى بها؛ فبرعوا في المجالات الحربية، والجغرافية، والفلكية، والطبية، وكان لهذه النهضة العلمية آثارها في أوروبا، وهو ما تجلى في استمرار الألفاظ العربية الأندلسية في مختلف العلوم في قواميس لغاتهم الأوربية حتى يومنا هذا.

وحين عزم المســـلمون على تحرير إســـبانيا تمكنوا من طرد البيزنطيين من شمال إفريقيا، بعد أن كان القوط قد سيطروا على إسبانيا في القرن السادس للميلاد، وظلوا سادتها إلى أن جاء المسلمون وحرروها بسبب ضعف الدولة القوطية، وقد تعاون طارق بن زياد وموســـى بن نصـــير في عامي (٩٢- ٩٣هـ) وفتحا إســـبانيا، وقد كان حدثًا حضاريًّا مهمًّا نتج عنه حضارة أندلسية مزدهرة أثرت بشكل كبير في الحياة الأوروبية[١].

نشـأت فئة المولدين بعد تزاوج العرب ومصـاهرتهم مع السـكان الأصـليين، كما ظهر المستعربون وهم الإسبان المســيحيون الذين ظلوا على ديانتهم[٢]، وحرص المســلمون على الوفاء بعهودهم لأهل الذمة؛ مما أدى إلى إقبال أهل الذمة إلى الدخول في الإسلام، وقد نتج عن ذلك دخول كثير من الكلمات الإسلامية، واستعمالها بألفاظها العربية.

وفي ظل هذه الروح المتسـامحة حظيت الأندلس بالاسـتقرار السـياسـي، والاجتماعي، والاقتصـادي؛ مما جعلها مركز إشعاع في المنطقة؛ فأنشئت الجامعات التي غدت منارة للثقافة في أوروبا، وأخذت حضارة المسلمين تتأثل في الأندلس منذ ارتقاء عبد الرحمن الأول العرش، حتى غدت أرقى مدن العالم حضارة لمدة جاوزت الخمسة قرون.

- حضارة الأندلس ومسيرة طب الجراحة:

لقد مرت الحضارة الإسلامية في الأندلس بمراحل، وخضعت لمؤثرات حضارية متعددة؛ بعضها يعود إلى المكتسبات من الحضارة الأم (الحضارة الإسلامية في المشرق)، وبعضها الآخر يرجع إلى المؤثرات الحضارية المحلية الناتجة عن البيئة التي نشأت فيها، وما نقله عرب الأندلس المشـرقيون من أنظمة الحكم والوزارة وتطويرهما، وحين أسـس الأمير عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية في الأندلس، وأخذت قرطبة مكانتها بين عواصم العالم المتحضر، وتزينت بمظاهر الحياة المدنية، وصارت مقر الخلافة؛ شجع الأمراء العلوم العربية، ونقلوها من المشرق العربي، وكان لهذه الخطوة أثرها في النهضة الأوروبية[٣].

---

(١) ينظر: العبادي، أحمد مختار. (١٩٧٢م). *في التاريخ العباسي والأندلسي*. دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، ص٣١٦.

(٢) ينظر: مؤنس، حسين. (٢٠٠٢م). *فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٩١١-١٧٥٦م)*. ط١، لبنان، العصـر الحديث للنشـر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشـر والتوزيع: بيروت، ص٤٥٥، ٤٥٨، ٤٥٩. والعبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي. ص٣١٦.

(٣) العبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي. ص٣٥٨، واليوزبكي، توفيق سلطان. (٢٠١٠م). الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا. *ثقافتنا للدراسات والبحوث*، ٥(٢٠)، ١٢٣-١٢٤.

وترك الوجود الإسلامي في الأندلس طابعه في شتى مجالات الحياة، مثل: الإدارة، والعمارة، والتجارة، والفلك، والكيمياء، وانتقلت كثير من الكلمات العربية من الأندلس إلى أوروبا، ويعد جامع قرطبة أعظم جامعة إسلامية في العصور الوسطى.

وقد شارك الرحالة الأندلسيون عددًا من العلماء والطلاب في نقل الكتب إلى المكتبات، وأقبلوا على ترجمتها في مختلف صنوف العلم والمعرفة، فيذكر ابن جلجل أن الكتب الطبية دخلت من المشرق وجميع العلوم على عهد الخليفة الناصر سنة (٣٠٠هـ)، وأن الخليفة قد أنشأ مكتبة تضم ما يربو على (ألف) مصنف في شتى العلوم والفنون(١).

وبرز في تلك الحقبة الكثير من العلماء البارزين، نحو: عبد الملك بن حبيب السلمي صاحب مخطوط "التاريخ"، وأبو علي القالي صاحب "الأمالي"، وساعد انتشار صناعة الوراقة في الأندلس على انتشار الكتب، وقد نقلها مسلمو الأندلس من بغداد، ثم نقلت بواسطة مسلمي صقلية والأندلس إلى أوروبا(٢).

وانتشرت الآثار الحضارية في شتى مناحي الحياة لغويًّا وأدبيًّا؛ فظهر فن الموشحات، وسُهّلت اللغة؛ لتتناسب مع أوزانه، وقد لمع عدد من فحول الشعراء والأدباء في الأندلس، منهم: ابن عبد ربه، وابن حزم، وابن زيدون، وابن خفاجة، وشهدت الأندلس في جانب آخر نهضة معمارية؛ فبرزت الجوامع المزخرفة بالزخارف والنقوش الإسلامية كجامع قرطبة، ومنارة إشبيلية، والقصر الإشبيلي، وقصر الحمراء في غرناطة، التي غلب عليها طابع النقوش الإسلامية الفريد.

وتأثرت الدول الأوروبية المجاورة بهذا الزخم الحضاري الذي نشأ في الأندلس؛ فانتقلت إليها العلوم عبر إسبانيا وصقلية وإيطاليا، وأنشئت مكاتب للترجمة، ومنها: مكتبة طليطلة التي نقلت الكتب الإسلامية إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة(٣)، وقد توسع هذا النشاط بعد أن فتح المسلمون الطريق عبر جبال ألبرت إلى فرنسا وإيطاليا.

وازدهر علم "الفلك" على يد المسلمين في الأندلس، وكان دافعهم في البداية تحديد اتجاه القبلة، ثم تطور الأمر إلى دراسة حركات النجوم، والتنجيم، كما شهدت المعرفة في الكيمياء نموًا ملحوظًا، واعتمدوا الأدلة والبراهين في مجالات العلوم الطبيعية، وتوسعوا في تأصيل المناهج التجريبية في البحث والاكتشاف، وتطورت علوم الحيل (الفيزياء)، والعقاقير، والزراعة.

---

(١) ابن جلجل. (١٩٨٥م). *طبقات الأطباء والحكماء ويليه تاريخ الأطباء والفلاسفة*. تح: فؤاد سيد، ط٢، مؤسسة الرسالة، ص٩٨، والعبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي. ص٤٢٠.

(٢) عنان، محمد عبد الله. (١٩٩٧م). *دولة الإسلام في الأندلس: العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين*. ط٤، مكتبة الخانجي: القاهرة، ص٤٤٧، والحجي، عبد الرحمن علي. (٢٠٠٧م). *الكتب والمكتبات في الأندلس*. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي: أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ص١٩٣-١٩٤.

(٣) ينظر: العبادي. *في التاريخ العباسي والأندلسي*. ص٣٧٣، ولوبون، غوستاف. *حضارة العرب*. ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة: القاهرة، ص٥٥٩-٥٦٢، وشاخت، جوزيف، وبوزورث، كليفورد. (١٩٧٨م). *تراث الإسلام*. ترجمة: محمد زهير السمهوري، وحسين مؤنس، وإحسان صدقي العمد. تعليق وتحقيق: شاكر مصطفى، مراجعة: فؤاد زكريا، عالم المعرفة: ١/١٢٥، ٢٨٩، ٣٠٩.

وكان مضمار السبق لمسلمي الأندلس هو العلوم الطبية التي كانت تعاني من احتقار واستهانة في الغرب، لا سيما ما يتعلق منها بطب الجراحة، وتعد شهادة الطبيب الإنجليزي دونالد كامبل الذي عرى فيها واقع طب الجراحة في أوروبا خير برهان على هذا التفوق، يقول في ذلك: "إن الجراحة في الأندلس كانت تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبرة؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يُمنحون لقب طبيب جراح، أما في أوربا فكان لقبهم حلاق جراح، وظل هذا التقليد ساريًا حتى القرن العاشر الهجري"(١)، وكان لازدهار الطب خلال فترة الخلافة الأموية في الأندلس، وما أبدعه علماء الطب من ابتكارات وإنجازات علمية تأثيره المباشر في التطور العلمي والحضاري في العالم فيما بعد؛ فتنوعت الاختصاصات الطبية في الأندلس بتنوع الخدمات التي قدمها الأطباء للمرضى، وتزايدت مجالاتها؛ نظرًا للازدهار في كافة الميادين، وأصبح الطب من أرفع العلوم شأنًا ومقامًا(٢)، وأنجبت الأندلس أشهر جراح، وهو أبو القاسم الطبيب الخبير بالأدوية المفردة والمركبة، وصاحب سفر "التصريف" الذي يعد موسوعة عالمية في طب الجراحة.

لقد تهيأت البيئة الخصبة لهذا الإبداع، وتمثلت في تأصيل خمس قواعد بني عليها صرح التفوق الطبي في الأندلس، وهي:

١- **الترجمة:** التي أسهمت في نقل المصنفات القديمة في مجالات الطب، والصيدلة، وصناعة العقاقير، ومن أبرز المترجمين إلى العربية (الراهب نيقولا) مترجم كتاب الحشائش لـ(ديسقوريدوس)(٣) وهو الكتاب الذي أوقد همة الأطباء الأندلسيين مثل أبي عبد الله بن عبد العزيز البكري صاحب كتاب (النباتات والشجيرات الأندلسية)، وابن جلجل في القرن الرابع صاحب (مقالة الأدوية)(٤)، الذي كتب سفرًا تناول فيه مجموعة من تراجم العلماء يُعرف بـ "طبقات الأطباء والحكماء"، وفي القرن الخامس كتب صاعد الأندلسي "طبقات الأمم" في تراجم الأطباء والعلماء.

٢- **دعم الخلفاء الأمويين للطب وأهله:** حيث كان لجهود عبد الرحمن الناصر أثر ملموس، وزاد الاهتمام والحرص عند بقية الخلفاء الذين قربوا العلماء، وتوسعوا في إنشاء المكاتب، وصولًا إلى عهد الخليفة المستنصر الذي شرّع خزائن بيت المال للإنفاق على العلماء والأطباء، وأنشأ حديقة نباتية فيها مختلف النباتات الطبية الموجودة في الأندلس(٥).

---

(١) خالد، بلعربي. (٢٠٢١م). تطور العلوم الطبية في عهد الخلافة الأموية في الأندلس وأثرها في تقدم الحضارة الإسلامية: (٣٠٠-٤٠٠هـ/ ٩١٢-١٠٠٩م). *المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة*، ٢(١)، (٢٠١٢م)، ص٦١-٦٢، وزناتي، الإنجازات العلمية لطب الأسنان في الأندلس، ص١٨٤٩.

(٢) خالد، بلعربي. تطور العلوم الطبية. ص٥٨.

(٣) ينظر: خالد، بلعربي. تطور العلوم الطبية. ص٤٦.

(٤) سالم، السيد عبد العزيز. *قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي*. مؤسسة شباب الجامعة: ص٢٠٨، وخالد، بلعربي. تطور العلوم الطبية. ص٤٧.

(٥) خالد، بلعربي. تطور العلوم الطبية. ص٤٩.

٣- **ازدهار صناعة الوراقة** في الأندلس بعد نقلها من بغداد التي كانت عامرة بدور النسخ، وما ترتب على ذلك من توسع مصانع إنتاج الورق في غرناطة، وطليطلة، وشاطبة؛ فعزز ذلك من فتح دور النسخ، وانتشار الوراقين(١).

٤- **التوسع في بناء (البيمارستانات)** التي ارتبطت بتحضر الدولة، فقد استولى الأمويون الذين وصلوا إلى الأندلس على حضارة بيزنطية قائمة اتسمت على أيديهم بالانفتاح العلمي الوافد من المشرق، فشكلت وعيًا عاليًا للنخبة الحاكمة الذين أدركوا أهمية تطوير الرعاية الصحية؛ لتحقيق رؤية مستقبلية مستقرة.

٥- **بروز وعي حضاري حول البعثات الطبية للمشرق العربي** الذي كان عامرًا بالأطباء الذين تبناهم الخلفاء، ووفروا لهم مقومات الإبداع؛ فأضحت البيمارستانات العراقية والشامية كعبة العلماء والأطباء من مختلف أنحاء العالم بعد أن أصبحوا الورثة الشرعيين لتراث الطب اليوناني والهندي القديمين اللذين تُرجما للعربية بدعم الخلفاء الأمويين والعباسيين، ولا أدل على ذلك من موسوعة (فردوس الحكمة) لعلي الطبري في القرن الثالث الهجري التي عقد في فصل منها مقارنة بين الطبين الهندي والإغريقي(٢)، ومن أبرز العلماء الأندلسيين الذين أفادوا من تلك البعثات "ابن السمينة" الذي أفاد من رحلته المشرقية، ثم عاد إلى الأندلس؛ فأفاد منه أهلها أيما فائدة(٣)، وكذلك الأمر ينطبق على: أبي بكر بن سليمان بن باج، وعريب بن سعيد القرطبي، ويحيى بن إسحاق القرطبي، وإصبع بن يحيى، وأبي جعفر الجزار، وسليمان بن جلجل.

لقد أثمرت تلك الجهود في بروز ممارسات طبية وأساليب علاجية لا سابق عهد بها، فكان المسلمون أول من مارسوا عمليات الجراحة في العالم، ووضعوا المؤلفات في طرائقها وضروراتها، وفصلوا الأمراض التي يجب استئصالها، وابتكروا الآلات المناسبة لكل حالة على حدة، وهم أول من اكتشف وسائل التخدير، وأنشأ المستشفيات، فقسموها قسمين: قسم للرجال وآخر للنساء، وقسموا كل قسم حسب المرض، وعزلوا المرضى المصابين بأمراض معدية، ولهم الفضل في إنشاء المستشفيات المتنقلة(٤).

وكان من أبرز الأطباء الذين علا كعبهم في ممارسة الجراحة، وأضحى (أبو الجراحة) في العالم حتى قرون مبكرة من عصر النهضة الحديثة، أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي: الذي يعد مفخرة العلم والطب في الأندلس خلال عهد الخلافة، يقول عنه ابن حزم الأندلسي:

---

(١) دياب، حامد الشافعي. (١٩٩٨م). *الكتب والمكتبات في الأندلس*. ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة، ص١٢٠، واليوزبكي. الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا. ص١٢٧.

(٢) ينظر: ابن النديم. (١٩٩٧م). *الفهرست*. اعتنى به وعلق عليه: إبراهيم رمضان، ط٢، دار المعرفة: بيروت، ص٣٥٨، وبايوش، جعفر. (٢٠٢٠م). مدخل منهجي لتاريخ الطب في الأندلس. *مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية*، ٢(٣)، ص٢٩٦.

(٣) قادري سمية. (٢٠١٤م). الطب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (٩٢هـ/٧١١م-٨٩٧هـ/١٤٩٢م). جامعة (٨) ماي (١٩٤٥) قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ماجستير، ص٣٢.

(٤) ينظر: نوفل، عبد الرزاق. (١٩٨٨م). المسلمون والعلم الحديث. دار الشروق: ص٦٤-٦٥، واليوزبكي. الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا. ص١٣٣.

"وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف قد أدركناه وشاهدناه، ولأننا قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول العمل في الطبائع لنصدقن..."(١) واكتسب مؤلفه عناية فائقة، وطُرِحَ له قبول حسن في الأرض، تفنن فيه بعد خمسين سنة من حياته المهنية، وأكد من خلاله العلاقة بين الطبيب ومريضه، وأرسى دعائم الأخلاقيات الطبية؛ فعدت جهوده مرجعًا للدراسة في كليات الطب، وقد قال عنه الفرنسي "لوسيان لوكليرك": ولا نندهش إذا وجدنا المدارس الفرنسية تضع الزهراوي في صف واحد مع جالينوس وأبقراط ليكون معهما الثالوث العلمي"(٢)، غير أن المراجع التاريخية لم تسعفنا بسيرة وافية عن الزهراوي، وإنما بلغت شهرته للعالم بفضل عمله الخالد (التصريف لمن عجز عن التأليف)، بالإضافة إلى مسيرته المهنية المتميزة، وبراعته في الوقت ذاته في علوم الصيدلة، والعلوم الشرعية، والعلوم الطبيعية.

وُلِدَ خلف بن عباس الزهراوي القرطبي الأندلسي الأنصاري في مدينة الزهراء، وقد اختلف المؤرخون حول سنة ولادته، ولكن الراجح أنه عاش بين عامي (٣٢٤-٤٠٤هـ)(٣)، وعاصر الطبيب الشهير ابن سينا؛ فتعلم منه، ونبغ في التطبيب والجراحة، ثم قرّبه الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث من بلاطه، وأصبح طبيبه الخاص أبان خلافته على الأندلس(٤).

لقد مَثَّلَ كتابه (التصريف) قيمة علمية بارزة في التأليف الطبي المبتكر للمعالجات العربية عمومًا، والجراحية على وجه الخصوص، وهو ما دفعني إلى تقديمه – في هذه الدراسة – نموذجًا تطبيقيًّا؛ ليبرز قدرة اللغة العربية على استيعاب علوم الطب ومصطلحاته.

أولًا: المعالجات الطبية في كتاب التصريف

يعد الزهراوي في مؤلفه الفريد واحدًا من أبرز ثلاثة أطباء نابغين نبوغًا فريدًا (الرازي، وابن سينا، والزهراوي) الذين فاقوا أساتذتهم، فنبغ في مجال الجراحة؛ حيث أرفده باستطبابات جديدة، واكتشف آلات دقيقة في عصره، وأرسى معالم منهج الملاحظة الطبية، والمراقبة للحالات أساسًا من أسس معالجاته.

واعتمد في بداية تعلمه على مصادر سابقيه من الأطباء الذين أفاد منهم كابن ماسويه، وسابور بن سهل، وإسحاق بن عمران، وقسطا بن لوقا، والرازي، وابن الجزار وآخرين(٥)، كما أفاد كثيرًا من خبرته الشخصية كطبيب ممارس، وصرح بذلك في كتابه الذي يمثل عصارة خبرته وتجربته في التطبيب والاستشفاء، يقول في وصف كتابه مخاطبًا أبناءه: "كفيتكم به من قراءة الكنانيش المطولات، وكتب الأوائل المغلقة التي لا تجني منفعة ثمرتها إلا بعد عمر طويل، ونصب شديد، وعناية بالغة وقد تضمنت لكم الكفاية به عن كتب أبقراط وجالينوس؛ إذ العمر قصير

(١) خالد، بلعربي. تطور العلوم الطبية. ص٥٤-٥٥، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١٧.

(٢) خالد، بلعربي. تطور العلوم الطبية. ص٥٥.

(٣) الدفاع، علي عبد الله. أعلام العرب المسلمين في الطب. ط١، مؤسسة الرسالة: بيروت، ص١١٩، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٩-١١.

(٤) ينظر: السعيد، عبد الله عبد الرازق مسعود. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١١، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١٣.

(٥) قادري سمية. الطب في الأندلس. ص٣٢، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٣١-٣٣، ص٤٠-٤١.

كما قال أبقراط والصناعة طويلة، وجعلته لكم كنزًا وذخرًا، ولمن انتفع به سواكم ثوابًا وأجرًا؛ إذ لا فضل مال لي أتخلفه لكم، فإن وراثة العلم عند أهل النهى أفضل من وراثة المال"(١) وفي هذا المقتطف من كلامه نستخلص موارد علمه، وعصارة فكره؛ فقيمه الإسلامية تتمثل في الإشارة إلى خير إرث لأبنائه وهو العلم النافع لا المال الزائل، وفي ذكر أبقراط اليوناني إشارة إلى ثقافته الطبية اليونانية، ويقول في مقالته الأولى مشيرًا إلى طب المشارقة "فصل في حد الطب" قال الرازي: هو حفظ الصحة على الأصحاء، وردها على المرضى بقدر طاقة الإنسان"(٢).

لقد حدد الزهراوي هدفه من تأليف الكتاب برغبته في إحياء علوم الطب على أصولها التي وضعها القدامى بعيدًا عن الأدعياء الذين مارسوا الطب؛ تكسبًا؛ ليتحول الطب نتيجة أفكاره وممارساته من مهنة وضيعة كانت تُمارس في دكاكين الحلاقة إلى مهنة عظيمة ذات أصول تجريبية، رفعت من شأن الأطباء العرب والمسلمين في زمن كانت فيه أوروبا تعدَّها من أعمال اليد التي تجلب لصاحبها احتقارًا ودونية، ويعبر الزهراوي بتواضع العلماء موجزًا دواعي التأليف فيه: "لم أقصد في وضعه من أراد الفخر والذكر والترؤس، إنما قصدت فيه أن أجعله بين يدي تذكرة حاضرة، وعدة للشيخوخة، ولكم ذخيرة نافعة، ومنفعة باقية... كل ما جربته وامتحنته من طول عمري منذ خمسين سنة"(٣).

قسَّم الكتاب ثلاثة أبواب تحتوي على ثلاثين مقالة طبية، تناول في الباب الأول: الكي، فوسع التوطئة له بشرح فوائده ومضاره، واستطباباته، ثم مارس شرحًا وصفيًّا لأحواله وهيئاته، وصنف في هذا الباب الكي إلى ثلاثة أنواع: كي بالنار، وآخر بالمواد والعلاجات الحارقة، وثالث بالسمن، كما عرض استطبابات الكي لآلام الرأس، والأذنين، وكي ماء العين، والأنف، والناصور في البدن أو الفم، والظهر والخدر، والسرطان والآكلة، كما وضع ممارسات للكي كعلاجٍ لآلام الأسنان، ولتخفيف آلام الأقدام، والساقين، والبواسير.

وهو حين يصنف للكي يحدد مكاوي متنوعة للممارسات العلاجية، فلكل حالة نوع خاص من المكاوي تناسبها لا تناسب غيرها، ولعل هذا واحد من أسباب تميزه في وصف المعالجات والآلات، وابتكار أدوات جديدة(٤).

ومن اللافت للانتباه عنايته بثالوث العلاج في الطب الحديث: الطبيب، والمريض، والخادم (الممرض)(٥)، في إشارة إلى تشييده هذا العلم على أسس واضحة من العلاقات لكل طالب له، وفي طوق من المهام التي يأخذ كل ركن من الثلاثة بحظه في إنجاح مهمته العلاجية.

وكانت أبرز الاستطبابات التي حرص عليها الزهراوي ربط الكي بالأزمنة المناسبة ليلًا أو نهارًا، وصيفًا أو شتاءً(٦)، وقد استخدم لغة اتسمت بالحذر والحيطة والحرص عند ممارسة هذه المعالجة، وهو الأمر الذي يصعب تتبع نماذجه

(١) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٣٧، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٣.

(٢) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٤٤، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٩.

(٣) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٣٨-١٣٩، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٤-٧٥.

(٤) ينظر باب الكي: ص٢٠، ٢٢، ٢٣.

(٥) الزهراوي. ص١٤، ٣٠، ٣١.

(٦) الزهراوي. التصريف. ص٧٥، ١٧٩، ١٨٣، والسعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٧٥، والزهراوي. ص٤، ٥، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١٦٦، ٣٩٧، ١١٥٢.

في كتابه؛ نظرًا لتنوع الهيئات والظروف المصاحبة[١]، ولعل أبرز ما يسترعي الاهتمام في هذا الباب الوصف الدقيق لأنواع المكاوي المستخدمة بين مستطيلة، ومدببة، ومستقيمة، ومنحرفة، وعرض صورها وربطها ربطًا أيقونيًّا بالمعالجات المطلوبة التي قد يوشيها برسوم يدوية توضيحية[٢].

شكل (١) نماذج الأدوات الجراحية التي ابتكرها الزهراوي في كتابه

وفي الباب الثاني تناول الزهراوي الجراحة بصورها كافة من صفد، وشق، وبط، بشكل منظم ومتسلسل، مستهلًا هذا الباب بالتأكيد على أخلاق الطبيب المسلم حين يقبل على ممارسة الجراحة، فيما يعرف اليوم بأخلاقيات المهنة بعيدًا عن التكسب والتهاون في حفظ الأرواح[٣]، محذرًا في الوقت ذاته من ممارسة هذا النوع من الطب من دون دربة أو مران، ومحذرًا من الممارسات غير الأخلاقية التي قد يقع فيها المعالج متأثرًا بالحالة النفسية للمريض، أو مستعجلًا للنتائج، أو جاهلًا بأصول هذا الفن؛ فيدفع المريض ثمنًا باهظًا لذلك[٤]، كما فَصَّلَ في مقالات هذا الباب المتنوعة الحديث عن صنوف العمليات الجراحية، وحللها تحليلًا علميًّا، متتبعًا ذلك من الولادة إلى الممات[٥]، كما قَدَّمَ فيه وصفًا دقيقًا للجراحات الدقيقة كقطع الشرايين، وسلّها، وابتكر أدوات جراحية لجراحة الأذن، واستخراج الحصاة منها، وإزالة الثآليل من داخلها، وعلاج سيلان دمع العين وتشميرها، والتصاقات الأجفان، وما يتبع ذلك من عمليات التجميل، وكان لبراعته في تشريح الأعضاء للموتى، وصرعى الحروب، ومجهولي الهوية أثر ملحوظ في تطوير علم الوظائف والأنسجة[٦].

وتوسع الزهراوي في توظيف الجراحة لعلاج أمراض الفم والأسنان في حال قلعها، أو تكسرها، أو تقويمها، كما فَصّلَفي شق الأورام وبطها على اختلاف مواطنها، وجعل لذلك محاذير وأساليب للعلاج لا يجاوزها طبيب بارع، ولا متعلم فطن[٧].

كما وضح في هذا الباب أنواع الولادات المتعسرة، وطرق التعامل مع أحوالها، وعَرَّجَ على البواسير فَقَدَّمَ الاستطبابات العلاجية أولًا، ثم شرح طريقة التعامل الجراحي معها[٨].

(١) الزهراوي، باب الكي، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٥، و١٦٤، ٢٥٢.
(٢) ينظر: كتاب التصريف. مصدر سابق، ص٧، ٨، ١٠.
(٣) الزهراوي. ص٣٦، ٣٧.
(٤) الزهراوي. ص٤، ٩، ١٤... وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١٨١، ٢٠١.
(٥) الزهراوي. ص٣٦-١٨٦، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١٢٧، ٣٦٣، ٨٤٤، ٨٤٥.
(٦) الزهراوي. ص٣٨، ٣٩، ٤٠، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٣٤، ٤٠٤، ٣٧٩.
(٧) الزهراوي. ص٦٢، ٦٣، ٦٤، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٤٦١، ٥٣١، ٤٦٨.
(٨) الزهراوي. ص١١٣، ١١٤، ١١٦.

ووســـع في نهاية هذا الباب الحديث عن الجروح وأنواعها، وأســـاليب علاجها على اختلاف مواطنها؛ فتفرد بعلاجات نادرة لم يسـبقه إليها أحد من السـابقين، يقول في ذلك: ''وكان الأطباء يحكمون عليه أنه لا يبرأ البتة، ومن العجب أني لم أعالجه بمرهم؛ لأني كنت في موضـع لا توجد فيه شـيء من الأدوية فكنت أضـع على الجرح القطن البالي مرتين في النهار، وانعقد غسله بماء العسل حتى برأ بإذن الله"(١).

لكن أبرز ما اتسـم به هذا الباب اللغة الحذرة التي صـاغ بها الزهراوي تحليلاته، ووصـفه للعلل، وسـرده لأنواع الاسـتطبابات؛ لذلك تكررت بكثرة مفردات التوخي والتحذير في شـرحه: (ينبغي، تحفظ، احذر، إياك)(٢) وكانت خبرته في وضع المعالجات وفق ممارسة طبية خالصة هي الزاد الذي غذى المفاصل الكثيرة لهذا الباب.

ثم تطرق في الباب الثالث لجبر الكسـور، ووصـف الضـمادات المناسـبة لها، وعَرَّجَ على الأزمنة والمدد المناسـبة للشفاء، وربط ذلك بالصحة والجنس والعمر، مع وضع الاحتمالات التي تعبر عن ممارسة وخبرة حقيقية(٣)، وفَصَّلَ الحديث عن بعض العمليات الجراحية المصاحبة بعض حالات الكسور، كما تدرج في ذكر الأعضاء من الرأس إلى القدم – شـأنه في تصـنيف الفصـول السـابقة – موشـيًا ذلك برؤية علمية، ووصـف دقيق، وابتكار لطيف، وعرض موجز لرأيه الشـخصي: "...وفي ذلك كلام طويل لا يعود أكثره بفائدة، وقد اختصرت من ذلك ما يغني قليله عن كثيره، مما أتوا به من تقريبي المعنى وشـــرحي له إلا أنه خلاف ما بينوه وشـــرحوه"(٤)، ويمكن تتبع المعالجات التي عرضها في الأبواب الثلاثة من خلال الجدول الآتي:

جدول (١) أنواع المعالجات التي طرحها الزهراوي في كتاب التصريف

الباب	عدد الفصول (المقالات)	العلاج
الأول	من الفصل الأول إلى الفصل السادس والخمسين.	الكي بأشكاله، ومواطنه كافة.
الثاني	من الفصل الأول إلى الفصل السابع والتسعين.	الشـــق، والقطع، والســـل، والفصـــد، والكي، والبط، الجرد، والقلع، والنشر، والبرد، والتشبيك، والجذب، والسلخ، والرض، والعصر، والثقب، والحقن، والشرط، والحجامة.
الثالث	من الفصل الأول إلى الفصل الخامس والثلاثين.	الجبر بأوضاعه وحالاته كافة، والشد بأحواله.

ثانيًا: إنجازات الزهراوي في مجال الجراحات والمعالجات الطبية

لم تسـجل المصـادر التاريخية للزهراوي مؤلفات طبية غير كتابه (التصـريف) الذي اتبع فيه منهجًا مميزًا جمع بين التنظير والتطبيق، واتسـم منهجه العلمي بالدقة، وتوخي المسـئولية الأخلاقية العالية، فقد كان يطلب من يتصـدى للتأليف في هذا الباب من العلم؛ الاطلاع على كل الأمراض التي تصـيب الإنسـان من خلال التجربة والمشـاهدة

(١) الزهراوي. التصريف. ص١٤١، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١٠٢٥.
(٢) الزهراوي. ص٣٦، ٣٧، ٣٨، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٥، ٢٣٧، ٢٥٢.
(٣) الزهراوي. ص١٨٨، ١٨٩، ١٩١، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٤٨٧، ٩٧٦.
(٤) الزهراوي. التصريف. ص٢٢٧.

المباشرة التي تمثل منهجًا تطبيقيًّا له آلياته وخصائصه قبل الخوض في الممارسة[١]؛ لذلك جمع في مؤلفه بين العلم النظري المجرد، والممارسة الوصفية الدقيقة للتجربة واحتمالاتها.

فأما النظري فقد برز في اعتماده على مجموعة من المصادر العربية، واليونانية القديمة، التي ضمنها كتابه عند وصفه للمعالجات، وأصناف النباتات، فكان ينقل أسماء أصحابها فيما ينقله من كتبهم منسوبًا إليهم[٢]، باستثناء الجزء المخصص للجراحة، فإنه لم يذكر فيه مصدرًا، أو اسمًا، بل أفاض في توجيه النصائح، والشرح بشكل مباشر للمتعلمين؛ مما يوحي بأن ذلك من إبداعه وتأليفه، وقد أشار في بعض مواطن الكتاب إلى تلك الاقتباسات بقوله: "ذكرت الأوائل – ذهب السابقون" وهكذا.

وأما التطبيقي فقد مثلت مقالته الثلاثون عن (الجراحة) جانبًا تطبيقيًّا خالصًا، معتمدًا على الملاحظة الحسية؛ مما أضفى على عمله جانبًا من الدقة والاتقان، ممزوجًا بذاتيته في نقل مشاهداته وتجاربه؛ لذا تكررت بكثرة في هذه المقالة عبارات مثل: (وأنا واصف علاج كذا، وأريدك أن تلاحظ كذا...)[٣].

ودرس علم وظائف الأعضاء برؤية عميقة نتج عنها براعته في دراسة علم التشريح؛ حيث طَبَّق معارفه وملاحظاته، فَشَرَّحَ جثث المحكوم عليهم بالإعدام، وجثث الموتى بالمستشفيات ممن غاب عنهم أهلهم وذووهم، ولم يلجأ إلى الجراحة، إلا إذا كانت الحاجة ملحة ولا برء إلا بها.

أما الجانب الإبداعي فقد برز في تفرده في التعامل مع العمليات المستعصية، وتسمية الأدوات المبتكرة، وتوشية كتابه بالصور والرسومات التوضيحية الدقيقة، وحنكته في التشريح التي تعتمد على التجربة، والملاحظة الدقيقة كمنهج علمي لا على التخرصات.

وكان وصفه الدقيق للأدوات باختلاف صورها ينم عن خيال علمي خصب بالصورة التخييلية للمرض، وشكل الأداة المناسبة[٤]، وهو ما يشير إلى دربة وفراسة تميزه كمختص عن غيره، كما برزت عنايته بالممارسات الأخلاقية في التطبيب حين حذر أبناءه ومن يرغب في تعلم هذا المجال من التكسب والمعالجات غير المجدية مهما كانت المغريات[٥]؛ لأنه يرى أن كل عضو في جسم الإنسان غالٍ، وجوهر يجب الحفاظ عليه، فكان لا يلجأ إلى قلع الأسنان إلا إذا استحال العلاج، ولا يلجأ إلى الجراحة إلا إذا استحال التشافي إلا بها كحل أخير[٦].

وكان الزهراوي من الأطباء الرواد في مجالات متعددة، فهو أول من نبغ في فن الجراحة في العالم، وأوصل هذا الباب من الطب إلى المتعلمين، فأجرى العمليات الجراحية الصعبة من الرأس إلى أخمص القدم، يقول في مطلع

(١) قادري سمية. الطب في الأندلس. ص٧٩-٨٢.

(٢) حمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٣١-٣٣.

(٣) الزهراوي. ص١٠٢، ١٠٧، ١٢٩..، حمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص١١٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ١١٠٩.

(٤) ينظر على سبيل التمثيل: ص١٤٤،١٤١.

(٥) ينظر: الزهراوي. ص١٥.

(٦) الزهراوي. ص٦٢، ٦٣، ١٣٥...

المقالة الثلاثين من كتابه: "اعلموا يا بني أنه قد يدعي هذا الباب الجهال من الأطباء والعوام ومن لم يتصفح قط فيه القدماء كتابًا ولا قرأ منه حرفًا ولهذه العلة صار هذا الفن من العلوم في بلدنا معدوم"(١).

إضافة إلى ما سبق سجل الزهراوي ريادته الطبية في مجالات متعددة، ومنها:

- أول من ابتكر عمليات علاجية في جراحات الفم، والأسنان، والزراعة، والتقويم، والتجميل شقًا، وبطًّا، ورتقًا.
- أول من وصف الألم المتنقل من السن المريضة إلى السليمة.
- أول من أجرى عمليات التجميل التكميلية.
- أول من أوصى برفع الحوض والأرجل في العمليات الجراحية السفلية.
- أول من صنف عمليات تفتيت الحصوات، والتهاب العظام، واستئصال الأورام.
- أول من ربط الشرايين؛ لإيقاف الدم المتسبب في حالات النزيف.
- أول من فَرَّقَ بين أنواع الأورام، وفَاضَلَ بين طرق العلاج استئصالًا، أو بالتعايش معها.
- أول من ابتكر محاقن، وسنانير، ومكاوي تعتمد هيئات هندسية تتناسب مع العضو المعالج وطريقته.
- أول من وصف مرض الهيموفيليا (الناعور).
- أول من استعمل آلة خاصة لخفض اللسان في أثناء عمليات الفم، وأول من استخدم السنانير؛ لاستئصال الزوائد اللحمية.
- أول من وصف الحقنة الشرجية بأحجامها واستخداماتها المتنوعة، وأدخل معلومات في جراحة أمراض النساء وهيئات التوليد.
- أول من مارس ولادة الحوض، وتوليد الأجنة المتعسرة، بالشدّ بآلة حديدية في الممارسات الطبية، وقدم آلات ووضعيات للولادة المتعسرة.
- أول من استخدم أمعاء الحيوانات للخياطة الذائبة، وتفنن في الخياطات، وقدم في كتابه وصفًا للأمراض، وركز على التشريح، ساعيًا للوصول إلى مستوى الحذق قبل الممارسة العملية، وتناول خصائص النباتات المستخدمة في العلاج، وأسهب في وصف الآلات، والمكاوي، والسنانير، والمزالق، والقثاطير، ووفر معلومات مفصلة عن مواد التصنيع، وكيف ومتى تستعمل، مصنفًا في كتابه ثلاثمائة مرض، وعارضًا أكثر من مائتي آلة جراحية.

وكان من ابتكاراته صناعة المعدات والأدوات العلاجية الدقيقة كمستخرج اللسان وقت العمليات، وآلات التوليد من ملاقط، وكراسي؛ لاستخراج الأجنة الميتة، والخطافات المدببة؛ لإزالة الزوائد الأنفية، ومحاقن للحقن الشرجي، وسكاكين، ومناشر جراحية، ومكاشط وكماشات، وسنانير وقضبان، وكان أول من استخدم الجص كجبس لعلاج الكسور، كما كان من أوائل من استخدم القطن كضمادات في الجراحة.

ويوضح الجدول الآتي نموذجًا من المعالجات التي يطرحها الزهراوي كبدائل علاجية في معالجة الأسنان جراحيًّا(٢).

---

(١) الزهراوي. التصريف. ص١٨٦، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٢٨.

(٢) ينظر كتاب التصريف: مصدر سابق، ص٦٢-٧٢.

جدول (٢) نموذج للأساليب الجراحية والعلاجية للأسنان في كتاب الزهراوي

المجال الطبي	المصطلح بالإنجليزية	التوصيف الطبي	نوع المعالجة	الأدوات الطبية	ملاحظات
زراعة الأسنان	Replantion of teeth	حركة الأسنان – الفقد.	جراحي – علاجي.	العظام المبرودة.	التعويض من عظام الحيوانات.
تلميع الأسنان	Extraction of teeth	*قلع الأصول (المتآكلة والمكسورة). *إخراج الفكوك المكسورة. * قلع الأضراس النابتة على غير مجراها. *النزيف الناتج عن القلع.	*تحفظي – علاجي – جراحي. *جراحي – علاجي. *علاجي (مواد قابضة) – كي.	*الكلاليب – الجفوت – الروافع – المباضع. *الصنانير – المناقش – الكلبتين.	*تدرج الزهراوي في المعالجة، وكان يرى عدم اللجوء إلى القلع إلا إذا كان عدم الحيلة لإبقائه (جوهر شريف ليس له خلف). *إزالة الجذور من الجلسة الأولى+ وضع محاليل على الجذور. *أشار إلى المخدر في القلع.
استئصال الزوائد	Excision of the mouth follicles	*قطع اللحمة الزائدة في اللثة. *تحرير اللسان المعقود. *إخراج الضفدع المتولد تحت اللسان. *عقد الشفتين (الأورام).	*علاجي – كي. *جراحي. علاجي.	*أدوات الكي. * مباضع. *مراهم الأسفيداج.	* التدرج في المعالجة – والتدخل الجراحي الخبير. *تكوين خلطات طبية من رماد الرصاص.
أمراض الفم (عامة)	Oral diseases	– الأورام. – الروائح.	علاجي– جراحي.	الجفوت – المباضع.	شرح مكونات المضمضات – والسنونات – الغراغر.

ثالثًا: دراسة لغوية لأسلوب الزهراوي في كتابه

تميزت لغة الزهراوي في كتابه باللغة العلمية الدقيقة الموجزة؛ حيث كان يوجه خاطبه إلى أهل الاختصـــاص في علمه، متجنبًا الإطالة والتزيد من دون حاجة، وقد كان يتخذ من ذلك وسيلة للتقرب إلى الله من خلال تعليم من لا يستطيع تعلم هذا العلم ومجالسة علمائه؛ ولذلك حرص على وضوح الأسلوب، وجلاء العبارة، ودقة الوصف، قارنًا ذلك بأدب ومسئولية أخلاقية تحذر من التعدي على ضرورات الإنسان الخمس، وسلب كرامته.

وكان كتابه جامعًا للاستطبابات، معززًا بالرسومات والتصاوير التي تنم عن خيال علمي واقعي يكشف جانبًا من التجربة والحذق بطبيعة الأشكال وزواياها، كما يتميز بدقة وملاحظة في وضع استخداماتها، وهي رسوم وأشكال تضفي قيمة علمية في التعليم الفعال تتوافق مع طبيعة الأهداف المرجوة منها، وتُكمل بناء الصورة الطبية واتساقها في ثالوث من المفردة الدقيقة، والصورة المعبرة، والتجربة المحكمة.

واتسم كتابه بالتقسيم والتبويب المنظم للمعالجات، مع تفريع يتضمن الوصف والاحتمالات، واستدراك يعتمد على التجربة ونتائجها، وهو التقسيم الذي يجعل بلاغة هذا النص العلمي بلاغة تبويب وتفريع لا بيان وبديع؛ لذلك قسم كتابه ثلاثة أبواب تحتوي على ثلاثين مقالة أدرج في بداية بحثه مسردًا بها، مما يعزز ريادته في وضع منهجية علمية سابقة لعصرها لا تختلف عن منهجية التقسيم والتبويب في أبحاثنا المعاصرة، كما أن جمعه بين الملاحظة والتجربة، ثم الاستقراء الدقيق والاستدلال، قاده للاستنباط، وسن الممارسات وتقعيدها في تسلسل يشبه تسلسل خطوات المنهج التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة المقرونة بالاستقراء والاستدلال المفضي إلى الاستنباط والتقعيد.

تميز باب (التداوي باليد) – وهو الباب الثاني – بالابتكار والاختراع في الأدوات والممارسات العلاجية، وهو ما يمثل في حياتنا المعاصرة ثورة في براءات الاختراعات التي سطا عليها الكثير من الأوروبيين في أوائل عصر النهضة ونسبوها لأنفسهم، وهي في أصلها من مبتكراته وتفرداته، ومن ذلك: كشفه عن استعداد بعض الأجسام للنزيف من دون غيرها سابقًا الجراح الإنجليزي بيرسيفال بوت (١٧١٤–١٧٨٨م) بأكثر من نصف قرن، "وهو أول من قام بربط شرايين الدم؛ لمنع النزيف قبل امبرواز باريه الفرنسي الذي ادّعى ذلك، وهو أول من وصف وأوصى برفع الحوض والأرجل قبل كل شيء في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الإنسان قبل الجراح الألماني ترند لنبورغ بقرون عديدة"[(١)] وكذلك سبقه العلمي في تفضيل العلاج بخيوط الذهب في جبر الأسنان وضمها على الفضة، وتحفّظه على الفضة لميلها للتعفن، وصعوبة التمدد خلاف الذهب الذي يسهل تمدده مما يجعله الخيار المناسب لشد الأسنان، وهي من الحقائق التي توصّل لها العلم الحديث[(٢)].

وامتاز الزهراوي بحرصه على ذكر توصيات الاستخدام وتعليماته في جل معالجاته في أثناء التطبيب وبعده، وهو ما يتوافق مع فكرة النشرة الطبية المرفقة مع الأدوية في عصرنا الحاضر.

ولم يكن الزهراوي يقدم وصفة علاجية واحدة لكل المرضى، وإنما كان يحرص على معرفة حال المريض، وموطن الألم، وما يصاحبه من إشارات، وما يلاحظه على المريض من علامات؛ فيشخص حالته قبل علاجه، ويقدم الأدوية المفردة والأيارجات والضمادات قبل الكي أو الجراحة، ويتوخى الحذر، يقول في ذلك: " إذا حدث في شق الرأس وجع مع صداع وامتد الوجع إلى العين فاستفرغ العليل بالأدوية المنقية للرأس واستعمل سائر العلاج الذي ذكرت في تقاسيم الأمراض؛ فإن لم تنجع ذلك فالكي منها على وجهين: إما الكي بالدواء الحاد المحرق، وإما

(١) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٨.

(٢) ينظر: الزهراوي. التصريف. ص٦٧.

بالحديد"[١] فهو يشـــخص الحالة ابتداء؛ فإن لم تســـتجب للعلاج انتقل إلى خطوة أكثر تعقيدًا، وأقوى أثرًا مثل الكي، أو الجراحة.

ونهج في مقدمة مؤلفه نهجا علميا حيث عاد للمدارس الطبية القديمة عند أبقراط وغالينوس وأرمانيوس وبولس الأجانيطي، والمدارس الإسـلامية عند الكندي والرازي وابن سـينا وابن الجزار وابن جلجل، ومن ذلك على سـبيل التمثيل تبنيه في مذهبه الطبي مسـلك جالينوس الذي يؤمن بآراء أرسـطو، حيث اسـتهل المقالة الأولى في الباب الثاني بتعريف منطلقاته الفلسفية التي تتوافق مع آراء أرسطو في (نظرية العناصر) و(نظرية الطبائع)، وهو ولع تُرجم من خلال تسمية بابه الثاني بـ (إعمال اليد)، ولعل الاستهلال الذي نهجه في مقالته الأولى من التعريف بالمصطلح يتوافق اليوم مع أسـس التأليف العلمي الذي يعتمد على تعريف المصـطلحات قبل تطبيقها، يقول في ذلك مفرقًا بين الأركان والعناصر (الأسطقصات): "قال جالينوس: إن العنصر هو جوهر متوهم بلا كيفية، والاسطقص هو جوهر مصور مكيف، والعناصر أربعة، وهي اسطقصات لهذا العالم، بمعنى أنها أصول له، وهي جواهر جسمية حاملة الكيفيات التي هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والأركان هي: الاسطقصات، وهي النار والهواء والماء والأرض"[٢] وكان يرى أن صـحة الجسـد واعتلاله تنهض من خلال التوازن بين تلك المكونات؛ فإن طغى أحدهما على الآخر كان مدخل الضرر في الجسد من ذلك الخلل، وهو ما يعدّ أثرًا للثقافة الفلسفية في تحليل بعض الظواهر ونشأة العلوم، ويؤكد حاجتنا اليوم لإحياء هذا الربط التراثي للوصول إلى الابتكار والإبداع.

واتسم منهجه العلمي في التصنيف بسمات، منها:

- حرصه في مقدمة مصنفه على تمثل منهجية علمية للتأليف الطبي الإسلامي في عصره، وتبرز هذه المنهجية من خلال مظاهر، منها:

١- الاستهلال الديني الذي يستشعر مخافة الله - عز وجل - والتذكير بمراقبته في أبدان الناس، فحثهم على معاملة مرضاهم بالرفق، وأنفسهم بالحزم، قائلًا: "واستعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلى السلامة والعاقبة المحمودة"[٣] وأن ينزهوا أنفسهم عن "ما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم، فهو أبقى لجاهكم، وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم"[٤]، كما أن التذكير بقدرة الله والثناء عليه عند كل موقف تتجلى عظمة صـنعه في الأبدان تطالعنا في أجزاء متفرقة من مصنفه.

٢- الهدف الذي دفعه لوضع مصنفه تذكيرًا لنفسه إن كبر وضعفت ذاكرته وبدنه، وتعليمًا لأبنائه من بعده، وإرثًا وتعليمًا لكل من يطلب هذا العلم الذي اندرست جل أبوابه، وتفرقت سبل تحصيله بعد أن أصابه التصحيف، ووقع فيه الخطأ والتشويش حتى استغلقت معانيه[٥].

---

(١) الزهراوي. التصريف. ص٨.

(٢) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٤٥، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٩.

(٣) الزهراوي. ص٣.

(٤) الزهراوي. التصريف. ص٣.

(٥) ينظر: الزهراوي: ص٢، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٢٨.

٣- العناية بالتقسيم والتبويب في صورة أبواب ثلاثة، تحتوي على مقالات، وفصول، تتفاوت أعدادها في كل باب وفق ما يقتضيه مقام العلل، وما يتفرع عنها من العموم إلى الخصوص، وهو التقسيم الذي صرّح به في مقدمة كتابه، ولننظر إلى تسلسل فصوله في باب جراحة العين وفق البناء الآتي:

في علاج الثآليل التي تعرض في الأجفان ← في علاج البرد العارض في أجفان العين ← في الشـــرناق الذي يكون في جفن العين الأعلى ← في ضـروب تشـمير العين ← في رفع الشـعر الناخس في العين كالإبر إذا كانت شعرة أو شعرتين ← في علاج الشـترة التي تكون في الجفن الأعلى ← في علاج الشـترة التي تكون في الجفن الأسـفل← في التصـاق جفن العين بالملتحمة وبالقرنية ← في قطع الظفرة وقطع ←لحم الآماق←في قطع الوردينج وما ينبت من اللحم الزائد في العين ←في لقط السـبل من العين ← في رد الريشـة إلى الأنف في رد نتو العين← في قطع العنبة ← في علاج الكمنة في قدح الماء النازل في العين.

ففي التسـلسـل السـابق نلاحظ الجمل الممتدة للتسـمية التي تتفاوت بين مركبات إسـنادية مفردة، وأخرى غير إسنادية تتممها الإضافة وشبه الجملة (الجار والمجرور) في تسلسل يتدرج من علة عامة إلى خاصة بلغة استقصائية للعلل.

٤- الإفادة المباشـرة من طب السـابقين، ومعالجاتهم في باب الأدوية، والاسـتطبابات غير الجراحية من غير تعدٍّ أو تحنٍ، أما الاقتباس في باب المعالجة الجراحية فيكاد ينعدم؛ مما يعزز إبداع الزهراوي لكثير من ممارســات هذا الفرع من الطب، الذي صـقلته ملاحظاته الدقيقة المقرونة بتجربته الثرية، يقول في رد معالجة من سبقه في شق الورم الذي يحدث في الحنجرة: "ذكر الأوائل أن هذا الشق في الحنجرة، ولم أر أحدًا في بلدنا هذا صنعه، وهذا نفس كلامهم"[(١)] فالأوائل هنا يعني بهم أطباء الإغريق القدامى.

- التدرج المنطقي للمعالجة، ووضـع الافتراضـات المحتملة لكل حالة في حال الاسـتجابة وعدمها، يقول في علاج العلق الناشب في الحلق: "إذا عالجت العلقة بما ذكرنا في التقسيم من العلاج بالأدوية فلم ينجع فانظر حينئذ في حلق العليل عند الشـمس بعد أن يكبس لسـانه بالآلة التي وصـفت لك، فإن وقع بصـرك على العلقة، فاجذبها بصنارة صغيرة، أو بجفت لطيف محكم، فإن لم يكن بها وإلا فخذ أنبوبة مجوفة فادخلها في حلق العليل..."[(٢)].
- اتسم عرض المسـميات والمصـطلحات التعريفية للأدوات بتنظيم منهجي في مقالاته، وفصـولها الداخلية، واعتمد على الصـور الوصـفية الدقيقة في رسـم أدواته، وأشـكالها، ومواد الصـنع؛ فتوالت الصـفات المركبة للأدوات، وتسميتها بما يشبه وصفها، أو نسبتها إلى مكانها كـــ (المكواة الزيتونية، الملقط الهندي، المكواة المنشارية، المثقب الحديدي) وهكذا[(٣)].

---

(١) الزهراوي. التصريف. ص٧٩.

(٢) الزهراوي. التصريف. ص٧٣.

(٣) ينظر إلى تعريفه للأورام وأنواعها وما تحويه من صفاقات يشبهها بحوصلة الدجاجة، ثم يصنفها إلى شحمية ومتحجرة، الزهراوي. التصريف: ص٧٦-٨١.

- تعود حركة التقديم والتأخير في عباراته الطبية إلى الحاجة إلى بؤرة اهتمام تنظم تدفق المعرفة من دون إخلال بالدقة العلمية؛ لينطلق بعدها وصفًا وترجيحًا بناء على ما بدا له بخبراته وممارساته، أما الإحالات داخل الفصول فتسهم في ترابط أجزاء الكتاب، وفصوله.

- تمثلت اللغة المصطلحية عنده في اللغة والمفردات الطبية الشائعة في عصره، وما ورثه عمن سبقه من الأطباء، وما أضافه من تجاربه وخبراته من أدوية وآلات ومعالجات، معتمدًا على توظيف الرصيد اللغوي المشترك مع من حوله في خطابه، ومراعيًا المقام الخطابي لمستقبِل خطابه، وهو ما أشار إليه في مقدمة كتابه بقوله: "جمعت فيه من فنون الأغذية والأدوية والأشربة والجوارشات، والمربيات، والأيارجات، والترياقات، والأدوية المسهلة، والضمادات، والمراهم، والأكحال، والأقراص، والسفوفات، والشيافات، والقطورات، والنطولات، والحقن، وأدوية القيء، وأدوات الزينة والباه، وما أشبه ذلك من دواء رفيع يصلح للجلة والملوك، وسهل يصلح للفقراء والمساكين، وكل ما جربته وامتحنته من طول عمري منذ خمسين سنة"(١).

- اعتمد الزهراوي في تشخيصه للأمراض على معاينة مباشرة للمريض، وقدرة تحليلية للأسباب، وإدراك الفروق بين الحالات، ووصف دقيق للمعالجات، بينما اعتمد في مسالك جراحته على معرفة كافية بتشريح العضو، واقتراح الوسيلة المناسبة للعلاج، والمفاضلة في العلاج بين الدواء، والغذاء، والجراحة.

- يمتلك الزهراوي محتوى معرفيًّا، وثقافة طبية خلاقة تؤهله لوضع الفرضيات، وطرح الحلول لكل احتمال طبي طارئ، وتبليغه بصورة إبلاغية ترمي إلى الإفهام، واعتمد في كتابه على الصور الوصفية الدقيقة، والعناية بالجزئيات التفصيلية في رسم أوصافه، وآليات الاستخدام، ووصف عوارض المرض، وهو ما رأى فيه زيادة في البيان(٢)، فتوالت الصفات المركبة للعارض، والدواء، ومراحل الشفاء، يقول في وصف آلة استحدثها وسماها المسعط، وهي آلة تقطر بها الأدوية والأدهنة في الأنف بعد العمليات أو الاستئصالات: "تصنع من فضة أو نحاس، شبه القنديل الصغير، مفتوح مقلوبة كالقصبة، ويكون المسعط مسطح مكشوف..."(٣).

سمات الخطاب الطبي عند الزهراوي في كتابه (التصريف):

يمكن تصنيف الخطاب الطبي عند الزهراوي بالخطاب العلمي الذي يسعى إلى عرض الفكرة مباشرة، من دون اللجوء إلى الإيحاءات، وما تحمله من دلالات ذهنية ورمزية؛ فهو خطاب توجيهي اضطلع فيه بمهمة تعليم صناعة الطب لأبنائه، ولمن رغب في طرق هذا الباب، تمثلت فيه قواعد مهمة في (نظرية التأدب) التي وضعها متأخرًا روبن لاكوف(٤) ومنها:

- **قاعدة التعفف** فلا يفرض نفسه على قارئه؛ ولذلك ذبّ عن عرضه الذم إن أخطأ في معالجة أو نصيحة بأنه وجه الكتاب لنفسه وبنيه من بعده، ويمكن للآخرين قراءته وتعلمه؛ إحسانًا ومنفعة، فإن وجدوا زللًا فيه أو خطأ

(١) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٣٨-١٣٩، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٥.
(٢) الزهراوي. التصريف. ص١٠، ١٣، ١٦، ١٥٥...
(٣) الزهراوي. التصريف. ص٦٠-٦١.
(٤) عبيد، حاتم. نظريات التأدب في اللسانيات التداولية. (٢٠١٤) *مجلة عالم الفكر*، ٤٣(١)، سبتمبر، ص١١٦

فلهم الإعراض عنه، يقول في ذلك: "لم أقصد في وضعه قصد من أراد الفخر والذكر والترؤس، وإنما قصدت فيه أن أجعله بين يدي تذكرة حاضرة، وعدة للشيخوخة، ولكم ذخيرة نافعة، ومنفعة باقية، فإن طعن عليّ طاعنٌ فيه، أو تعقب عليّ متعقب لخلل أو زلل وقع فيه لغير عمد، فالخير أردت والصواب قصدت"(١).

- **قاعدة التخيير** فمخاطبه له حق الاختيار بين قبول ورفض للممارسة؛ فهو يطرح ثلاثة أصناف من العلاج: الدواء، والغذاء، والجراحة، ويجعل المعالج الفطن يلاحظ الوسيلة المناسبة، والطريقة الناجعة للمعالجة، ونماذج التخيير كثيرة في كتابه سبق عرض بعض منها.
- **قاعدة التودد** من خلال استخدامه لصيغة (يا بَنِي) في أكثر من مقام في كتابه، كذلك تودده في مخاطبة المعللين (الأطباء) كقوله موجهًا لهم الخطاب "فخذوا لأنفسكم بالحزم والحياطة، ولمرضاكم بالرفق والتنكب، واستعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلى السلامة والعاقبة المحمودة"(٢)، فقد كان شغله الشاغل أن يسهل قواعد هذه الصناعة لهم، ويعلمهم بتواضع المعلم الحذق؛ لذا اتسم خطابه الطبي بسمات، منها:
- لم يغب عن ذهن الزهراوي حقيقة اختصاص كل أمة بطرق معينة في طرق تطبيبها مع مراعاة أفكارها الإيديولوجية التي تنطلق منها، فهو يحمد الله إذا تم العلاج، ويهلل، ويسبح إن حدث أمر عجيب يدل على قدرة الله، كما أنه يحذر المعللين من التهاون في المعالجة، والمغامرة في الممارسة التي قد تفقد المريض حياته، أو عضوا من جسده ليشتروا عرضًا من الدنيا، وهو ما يعرف اليوم بأخلاقيات مهنة الطب، يقول محذرًا المعليين: "استعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلى السلامة، والعاقبة المحمودة، وتنكبوا الأمراض الخطرة العسرة البرء، ونزهوا أنفسكم عما تخافون أن تدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم فهو أبقى لجاهكم وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم"(٣).
- تأسس الخطاب الطبي في كتابه على نص معلوم مثلته المادة العلمية المدونة، وآخر مجهول (تخييلي) مثلته الفرضيات، والقوانين، والتجارب التي واكبتها، ليتحول إلى خطاب طبي متصاعد يتسم بالبساطة والوضوح، بحيث يضام فيه فن التفكير العلمي، وفن الكتابة العلمية معًا؛ مما جعل الوثاق المنطقي في الكتاب متينًا، والبناء مقنعًا كحصيلة لهذا النظام المعرفي.
- اتسمت البنية التركيبية لعناوين الفصول بالجمل الممتدة متنوعة التركيب إسنادًا أو غير إسنادي، واتسم بناء الجملة الإسنادية بوجود وصف يفصل بين ركنيها، أما غير الإسنادية فتكونت من شبه جملة يليها مضاف إليه، وقد يفصل بينهما صفة أو اثنتين، وقد تتكون من جمل متداخلة تفصل المسند عن المسند إليه بجمل وصفية في العنوان الواحد(٤).

---

(١) السعيد. من رواد الطب عند المسلمين والعرب. ص١٣٨-١٣٩، وحمامي. التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي. ص٧٤.

(٢) الزهراوي. مرجع سابق، ص٣.

(٣) المرجع السابق، ص٣.

(٤) عبد السلام، هدى حسن حسين. (٢٠٢٢م). تداولية التأليف الطبي - مقالة العمل باليد للزهراوي (ت٤٠٤هـ) أنموذجًا. *مجلة كلية الآداب بقنا*، جامعة جنوب الوادي، ٥٤(١)، ص٤٠٢-٤٠٤.

- لم يعتمد الزهراوي في كتابه على إحصاءات دقيقة، وإنما ناسبت أساليبه لغة الخطاب السائد المتداول في عصره الذي يعتمد على الكثرة، والقلة، والتوسط، والندرة كمقاييس لنسب المعالجة، ونجاعة الأدوية.
- أبرز تتابع الجمل عند الزهراوي اعتماده الكبير على الجمل الفعلية ذات الطابع الإقراري في مقالاته التي اكتسبها من خبرته، ولا سيما أفعال الأمر؛ نظرًا لما استنه في كتابه من تعليم للمبتدئين، وتوجيه للمتعلمين، معتمدًا على الجمل الواضحة القصيرة، وقدرتها على تسهيل المقولات والمفاهيم، واختزال المدلولات، وبرزت الجمل المنفية المقرونة بالشرط في شواهد خطابه التوجيهي؛ نظرًا لاعتماده على التوجيه في طرح البدائل العلاجية في حال ظهور عارض، أو عدم استجابة علاجية.

خاتمة الدراسة:

مَثَّلَ الزهراوي في بلاد الأندلس علامة فارقة في فنون الجراحة الطبية، ووضع ممارسات مبتكرة لم يسبق لها، كما صمم مئات الأدوات الطبية التي ما زال بعضها يستخدم إلى يومنا الحاضر، مسجلًا إنجازات خالدة في تاريخ البشرية خلود الحضارة الإسلامية العريقة التي ينتمي إليها، واتسمت نصوصه الطبية بسمات، منها:

١- أثّر الوجود الإسلامي في الأندلس تأثيرًا بالغًا في تشكيل الهوية العلمية، والطبية للحضارة الإنسانية في العصور المظلمة.

٢- يعدّ الزهراوي في مؤلفه التصريف واحدًا من أبرز ثلاثة أطباء عرب نابهين، مثلوا أقطاب الطب في العصور الوسطى.

٣- كشفت دراسة كتاب التصريف عن صورة من صور التساقي الثقافي لمنجزات الثقافة العربية مع الأمم المجاورة، والرفد من مصطلحاتها ترجمة وتعريبًا، وتصويبًا لأخطائها، وتتميمًا لنواقصها.

٤- اعتنى الزهراوي بثالوث العلاج في الطب الحديث: المعلل، والمريض، والخادم في مؤلفه الذي صنفه في ثلاثة أبواب ومائة وتسعة وثلاثين فصلًا شملت أمور الطب المعروفة في عصره.

٥- قدّم الزهراوي من خلال معالجاته وممارساته نهجًا علميًّا معتمدًا على الجمع بين التنظير والتطبيق يتوافق مع معطيات المنهج التجريبي اليوم.

٦- خطاب الزهراوي خطاب توجيهي اضطلع بمهمة التعليم، وتمثلت فيه قواعد التأدب من تعفف، وتخيير(تشكيك)، وتودد، ونبعت بلاغة نصوصه من وجود بناء لغوي إبلاغي ينهض على تصور عقلي، ويستقيم وفق منهج واضح يخضع المعارف والمصطلحات للتنظيم والتبويب.

٧- لم يعق استخدام الألفاظ العربية واشتقاقاتها في المعالجات الطبية والمصطلحات من النبوغ العربي، والانتشار الواسع للثقافة العربية الطبية في الأوساط العلمية؛ فمثلت الإنجازات العربية الخالدة بلغة العرب الأصيلة وفق شهادة المتأخرين من العلماء عربًا وعجمًا مرجعًا علميًّا موثوقًا للحضارة الإنسانية.

٨- الاستيعاب الشامل للخصائص التركيبية للخطاب الطبي عند العرب -بناء وصياغة ومنهجًا- كفيلة بصياغة علمية عربية لتعريب الطب في جامعاتنا من دون خوف من التعثر.

٩- يمتلك العلماء العرب لغة اصطلاحية لتسمية الأمراض، والأدوية، والمعالجات يمكن الإفادة منها في وضع معاجم طبية علمية.

١٠- ظهر في مؤلف الزهراوي أثر للثقافة الفلسفية، وهو ما يعزز الحاجة اليوم لتفعيل الفلسفة في حياتنا؛ لتنشيط الحركة العلمية في البلاد العربية.

توصيات الدراسة:

١- دعوة الكليات الطبية؛ لتخصيص مواد دراسية في خططها الدراسية؛ لدراسة الطب العربي، وإبرازه كمكون ثقافي للأمة، والإفادة من التعريب في ترجمته الكتب الطبية إلى العربية.

٢- تطبيق المناهج العلمية الحديثة على الأعمال التراثية العلمية (الطبية) في ضوء تعزيز القراءة التأويلية للغة هذه النصوص.

المصادر والمراجع:

ابن جلجل. (١٩٨٥م). *طبقات الأطباء والحكماء ويليه تاريخ الأطباء والفلاسفة*. تح: فؤاد سيد، ط٢، مؤسسة الرسالة.

الحجي، عبد الرحمن علي. (٢٠٠٧م). *الكتب والمكتبات في الأندلس*. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي: أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

حمامي، صبحي محمود. (٢٠٠٤). *التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي*. ط١، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، إدارة الثقافة العلمية: الكويت.

خالد، بلعربي. (٢٠٢١م). *تطور العلوم الطبية في عهد الخلافة الأموية في الأندلس وأثرها في تقدم الحضارة الإسلامية*: (٣٠٠-٤٠٠هـ/ ٩١٢-١٠٠٩م). ٤٠-٦٥.

الدفاع، علي عبد الله. (١٩٨٣م). *أعلام العرب المسلمين في الطب*. ط١، مؤسسة الرسالة: بيروت.

دياب، حامد الشافعي. (١٩٩٨م). *الكتب والمكتبات في الأندلس*. ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة.

زناتي، أنور محمود. الإنجازات العلمية لطب الأسنان في الأندلس وأثره على التطور العلمي الأوروبي منذ عصر الخلافة وحتى نهاية دولة الموحدين: (٣١٦-٦٤٠م/ ٩٢٨-١٢٤٤م). *مجلة الدراسات العربية*، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ١٨١١-١٨٧٠.

الزهراوي. (١٩٠٨م). *التصريف لمن عجز عن التأليف*. مكتبة الملك فهد الوطنية: الرياض.

سالم، السيد عبد العزيز. *قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس*: دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة.

السعيد، عبد الله عبد الرازق مسعود. (٢٠٠١م). *من رواد الطب عند المسلمين والعرب الزهراوي طبيب وجراح الفم والأسنان وموسوعته الطبية "التصريف لمن عجز عن التأليف"*. ط١، وزارة الثقافة: عمان، الأردن.

شاخت، جوزيف، وبوزورث، كليفورد. (١٩٧٨م). *تراث الإسلام*. ترجمة: محمد رهير السمهوري، وحسين مؤنس، وإحسان صدقي العمد، تعليق وتحقيق: شاكر مصطفى، مراجعة: فؤاد زكريا، عالم المعرفة.

العبادي، أحمد مختار. (١٩٧٢م). *في التاريخ العباسي والأندلسي*. دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت.

عبد السلام، هدى حسن حسين. (٢٠٢٢م). تداولية التأليف الطبي - مقالة العمل باليد للزهراوي (ت: ٤٠٤هـ) أنموذجًا. *مجلة كلية الآداب بقنا*، جامعة جنوب الوادي، ١(٥٤)، ٣٩٨-٤٤٦.

عبيد، حاتم. نظريات التأدب في اللسانيات التداولية. (٢٠١٤). *مجلة عالم الفكر*، ٤٣(١)، سبتمبر.

عنان، محمد عبد الله. (١٩٩٧م). *دولة الإسلام في الأندلس: العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين*. ط٤، مكتبة الخانجي: القاهرة.

قادري، سمية. (٢٠١٤م). *الطب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (٩٢هـ/٧١١م- ٨٩٧هـ/١٤٩٢م)*. إشراف: خالدي مسعود، جامعة (٨) ماي (١٩٤٥) قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ماجستير.

لوبون، غوستاف. *حضارة العرب*. ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة: القاهرة.

مؤنس، حسين. (٢٠٠٢م). *فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٩٢-٣٥٦هـ/٧١١-٩٧٥م)*. ط١، العصر الحديث للنشر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، لبنان.

ابن النديم. (١٩٩٧م). *الفهرست*. اعتنى به وعلق عليه: إبراهيم رمضان، ط٢، دار المعرفة: بيروت.

نوفل، عبد الرزاق. (١٩٨٨م). *المسلمون والعلم الحديث*. دار الشروق.

يايوش، جعفر. (٢٠٢٠م). مدخل منهجي لتاريخ الطب في الأندلس. *مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية*، ٢(٣)، ٢٧٨-٣٧٧.

اليوزبكي، توفيق سلطان. (٢٠١٠م). الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا. *ثقافتنا للدراسات والبحوث*، ٥(٢٠)، ١١٩-١٤٨.